المبحث الأول

القَـصْـرُ

القصرُ لغةً : الحبسُ والإلزامُ ، تقولُ : قَصَرْتُ نفسي على الشيءِ إذا حَبَسْتُها عليه ، وألْزَمْتُها إيّاه ، وتقولُ : قصَرتُ الشيءَ على كذا إذا لم تجاوزْ به إلى غيرِه ، ومن القَصْرِ بمعنى الحبس قولُ الله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾[1]

أي قُصِرْنَ ، وحُبِسْنَ على أزواجهنَّ ، فلا يَطْمَحْنَ لِغيرِهم .

هذا هو معنى القَصْرِ في اللغةِ ، فما القَصْرُ في اصطلاح البلاغيينَ؟ وما طُرُقُهُ؟ وما مكوناتُهُ؟ وما أقسامُهُ؟

أولاً – مفهومُ القصرِ وطرقُهُ :

الأمثلةُ :

١ – لا يعلمُ الغيبَ إلا الله.

يقول أبو تمام:

بَصُرْتَ بالراحةِ الكُبْرى فلم تَرَها ... تُنالُ إلا على جِسْرٍ من التعبِ

٣ – يقولُ الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[2]

٤ – ويقولُ شوقي:

وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإنْ همو[3] ذهبت أخلاقُهم ذهبوا

٥ – صداقةُ الجاهلِ تَعَبٌ لا راحةٌ.

---

(١) الرحمن (٧٢).

(٢) فاطر، من الآية (٢٨).

(٣) الواوُ هنا ناشئةٌ عن إشباعِ الضمةِ على ميم الجمعِ، وهي لغةٌ فصيحةٌ في ضمير الغائبينَ.

٦ – يقولُ ابنُ الرومي:

أمـوالُـه فـي رِقـابِ الـنـاسِ مِـنْ مـنَـنٍ لا في الخزائنِ من عَيْنٍ [١] ومن نَشَبِ [٢]

٧ – يقولُ اللّه تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[٣]

٨ – ما الأرضُ ثابتةٌ بل متحركةٌ.

٩ – ما الأرضُ ثابتةٌ لكن متحركةٌ

١٠ – لا أُجيدُ الشعرَ لكن الخطابةَ.

❊ ❊ ❊

١١ – يقولُ الله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٤]

١٢ – يقولُ الشاعرُ:

وحـيـاتَـه أَعْـطـى الـشـهـيـدُ لـقـومِـهِ أتـرى أجـلَّ مـن الـحـيـاةِ عَـطـاءَ[٥]؟

❊ ❊ ❊

البـيـــان :

اقرأ المثالَ الأولَ (لا يعلم الغيبَ إلا اللّه)، ثم اجعلهُ بإزاءِ قولِنا: (يعلمُ اللّه الغيبَ)، ووازن بينَهما، ماذا تلاحظ؟

عند قراءتِنا (يعلمُ اللّه الغيبَ) نستفيدُ إسنادَ علمِ الغيبِ إلى اللّه تعالى دون تخصيصٍ له سبحانَهُ بهذا العلمِ، فهذا التعبيرُ (يعلمُ اللّه الغيبَ) لا ينفي عن غيرِ اللّه علـمَ الغيبِ، أما قولُنا

---

(١) العينُ: الذهبُ والفضةُ.
(٢) النَّشَبُ: المالُ.
(٣) آلُ عمرانَ (١٦٩).
(٤) الفاتحة (٥).
(٥) حرفُ الرويِّ لايُنَوَّنُ، والوقفُ على كلمة (عطاءَ) يكونُ بالألِفِ.

(لا يعلمُ الغيبَ إلا اللّه) فيعني تخصيصَ اللّه تعالى بعلمِ الغيبِ، فمن أين جاء هذا التخصيص؟

بالنظرِ إلى التعبيرين يتضحُ أن التخصيصَ قد تحققَ بوساطةِ أداتي النفي والاستثناءِ، قد انتفى علمُ الغيبِ بأداةِ النفي (لا)، ثم انتُقِضَ هذا النفيُ بأداةِ الاستثناءِ (إلّا) ليثْبتَ علمُ الغيبِ اللّه وحدَهُ، أي ليُقْصَرَ علمُ الغيب على اللّه وحدَهُ، ففي هذا المثالِ (لايعلمُ الغيبَ إلا اللّه) قُصِرَ علم الغيبِ على الله وحدَهُ عن طريقِ النفي والاستثناءِ. فعلمُ الغيبِ مقصورٌ، ولفظُ الجلالةِ مقصورٌ عليه، وطريقُ القصرِ هو النفيُ والاستثناءُ.

تأمّل المثالَ الثاني تجد أنَّ القصرَ قد تحقَّقَ فيه هو الآخر عن طريقِ النفي والاستثناءِ. وإذا تَدَبَّرنا كلَّ أساليبِ الاستثناء المسبوقةِ بنفي أوشِبْهِ نفي [1] نجدها قد خَصَّصتْ شيئاً بشيءٍ آخرَ، أي قصَرَتْ شيئاً على شيءٍ آخرَ، وأنَّ المقصورَ عليه دائماً يقعُ بعد أداةِ الاستثناءِ. لاحظ قولَنا: (لايفوزُ إلا المجدُّ) تجد هذا الأسلوبَ قائماً على نفي واستثناء، وقد قُصِرَ الفوزُ على المجدِّ عن طريقِ نَفي الفوزِ، ثم نقض هذا النفي بالإستثناءِ لِيثبتَ الفوزُ للمُجِدِّ دون غيرِهِ، فطرفا القصرِ هنا (الفوزُ) مقصورٌ، و (المجدُّ) مقصورٌ عليه.

انظر في المثالين الثالثِ، والرابع تجد أنَّ خشيةَ اللّه تعالى قد قُصِرت على العلماءِ من عبادِهِ، كما تجد بقاءَ الأمم مقصوراً على بقاءِ الأخلاقِ فيها. ومثلُ ذلك يقالُ في نحوِ «إنما يتذكرُ أولو الألبابِ» فالتذكرُ في القولِ السابقِ مقصورٌ على أولي الألبابِ، والذي حقق هذا المعنى هو استخدامُ (إنما). فالطريقُ الثاني للقصرِ بعد النفي والاستثناءِ هو (إنما).

اقرأ المثالَ الخامسَ (صداقةُ الجاهلِ تعبٌ لا راحةٌ) تجد صداقةَ الجاهلِ قد حُكِمَ عليها بالتعبِ، فماذا أفاد العطفُ (لا راحة) في مضمونِ الكلام؟

إننا حين نحكمُ على صداقةِ الجاهلِ بأنها تعبٌ لا يعني ذلك قصرُ صداقةِ الجاهلِ على التعب لأنَّ التعبَ قد يفارقُها إلى الراحةِ، أما حين نعطفُ الراحةَ على التعب بالحرفِ (لا) فإننا

---

(١) المقصودُ بشِبْهِ النفيِ النهي والاستفهامُ الإنكاريُّ.

ننفي بذلك مفارقةَ صداقة الجاهلِ التعبَ إلى الراحةِ، لتبقى صداقةُ الجاهلِ مقصورةً على التعب، لا تفارقُهُ إلى غيرِهِ، فطرقُ القصر هنا كان العطفُ بلا، والمقصورُ عليه المقابلُ ما بعد (لا).

وفي بيتِ ابن الرومي حُكمُ على أموالِ ممدوحِهِ باستقرارها في رقابِ الناسِ مِنَناً تطوِّق أجيادَهم، ولكي يقصرَ الشاعرُ مصارفَ إنفاقِ ممدوحِهِ في المنِ نفى عنها أن تكونَ مستقرةً في الخزائنِ عن طريقِ العطفِ بلا النافيةِ التي جعلت مقابلَ ما بعدَها مقصوراً عليه.

تأملِ المثالين: السابعَ والثامنَ تجدِ الأولَ منهما ينهى عن عدِّ القتلى في سبيل اللّه أمواتاً، وتجدِ الثانيَ ينفي عن الأرضِ صفةَ الثباتِ، ولما كان ظاهرُ الحالِ خلافاً لما ذُكِر كان العطفُ بحرفٍ يفيدُ الإضرابَ ليقصرَ القتلى في سبيل اللّه على الحياةِ دونَ الموتِ، ويقصر الأرضَ على الحركةِ دون الثباتِ، فالقتلى في سبيل اللّه مقصورون على الحياةِ، والأرضُ مقصورةٌ على الحركةِ، وطريقُ القصرِ هنا هو العطفُ ببل، والمقصورُ عليه ما بعدَها.

والمثالان: التاسعُ والعاشرُ بدأ كلٌّ منهما بتقريرِ حكم هو نفيُ الثباتِ عن الأرضِ في المثالِ التاسع، ونفيُ إجادةِ الشعرِ عن المتكلمِ في المثالِ العاشرِ، ثم جاء التخصيصُ في كلٍّ منهما عن طريقِ العطفِ بالحرفِ (لكن) الذي يفيدُ الاستدراكَ ليقصرَ الأرضَ على الحركةِ دون الثباتِ، ويقصرَ إجادة المتكلمِ على الخطابةِ دون الشعر، فالأرضُ مقصورة على الحركةِ، وإجادة المتكلم مقصورة على الخطابه، وقد تحققَ القصرُ عن طريقِ العطفِ بلكن، وجاء المقصورُ عليه بعدَها.

انظر في المثالين: الحادي عشر والثاني عشر، تجد كُلّاً منهما قد بدأ بمفعولٍ به تقدمَ على الفعلِ والفاعلِ، وحقُّ المفعولِ أن يتأخرَ عنهما، فماذا أفاد تقديمُ ما حقّهُ التأخيرُ؟ إن تقديمَ الضميرِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ . أفاد تخصيصَ اللّه تبارك وتعالى بالعبادة والاستعانةِ دون غيرِهِ، فعبارةُ (نعبدُك ونستعينُك) لا تُفيدُ هذا التخصيصَ، إذ يحتمل المعنى هنا إشراكَ غيرِهِ في العبادةِ والاستعانة، أمّا قولُنا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فيعني نعبدُكَ وحدَكَ، ونستعينُكَ وحدَكَ أي لانعبدُ إلا إياك، ولا نستعينُ إلا بِكَ، وهذا يعنى تخصيصَه

سبحانَهُ وتعالى بالعبادةِ والاستعانةِ، أي أن العبادةَ والاستعانةَ مقصورتان عليه، وقد تحققَ القصرُ عن طريقِ تقديم ما حقّه التأخيرُ، والمقصورُ عليهِ هو المقدَّمُ.

ويسهلُ عليكَ أن تتبيَّنَ طريق القصرِ، وتعيّنَ المقصورَ عليه من خلالِ الموازنةِ بين قولِ الشاعرِ: «وحياتَه أعطى الشهيدُ لِقومِهِ» وقولِنا: (وأعطى الشهيدُ حياتَه لقومه)، فتقديمُ المفعولِ (حياتَه) أفاد تخصيصَ حياةِ الشهيدِ بالإعطاءِ، أي قصرِ الإعطاءِ عليها. فطريقُ القصرِ هنا هو تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ. ومن ذلك تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِ المتنبي:

بـرجـاءِ جـودِكَ يُـطْـرَدُ الـفـقـرُ وبـأن تُـعـادى يَـنْـفَـدُ الـعُـمْـرُ

وتقديمُ الخبرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ N O P Q R ﴾ [1]

الخلاصة:

- القصرُ تخصيصُ أمرٍ بآخر بطريقٍ مخصوصٍ.
- طرقُ القصرِ المشهورةُ أربعةٌ [2]:

أ - النفيُ والاستثناءُ، وهنا يكون المقصورُ عليه ما بعدَ أداة الاستثناءِ.

ب - إنما، ويكونُ المقصورُ عليه مؤخراً وجوباً.

جـ - العطفُ بِلا، أو بل، أو لكن، فإن كان العطفُ بِلا كان المقصورُ عليه مقابلاً لما بعدَها، وإن كان العطفُ (بل) أو (لكن) كان المقصورُ عليه ما بعدَهما.

- تقديمُ ما حقُّهُ التأخيرُ، وهنا يكونُ المقصورُ عليه هو المقدَّمُ.
- لكلِّ قصرٍ طرفان: مقصورٌ، ومقصورٌ عليه.

---

(١) آل عمران. من الآية (١٨٩).

(٢) هناك طرق للقصر غير هذه الأربعة، منها ضمير الفصل، نحو: عليّ هو الشجاع، ومنها التصريح بلفظ (وحده) أو (ليس غير)، ولكنها لا تعد من طرقه الاصطلاحية.